قصص

حتى لا يضيع الحراك

يحيى المصري

سند
sanadarts.com

ثلاثة عشر عاماً، ورغم كل أدواته القمعية، لم يستطع السيسي ونظامه العسكري أن يهزمنا في معركة الإرادة، تلك الهزيمة التي تجعلنا –نحن جيل الثورة– نلعن اللحظة التاريخية التي خرجنا فيها في يناير ٢٠١١م.

حين خرجنا نهتف للحرية بحناجرنا العالية، وعروقنا النافرة، وما كان لتلك الحناجر أن تكفر بالثورة يوماً، أو تسبّح بحمد ظالم.

فما زال جيلنا يفخر بتلك اللحظة، وإن لم نستطع الحفاظ عليها، وندفع الآن زهرة شبابنا ثمناً لذلك. نحن نعلم يقيناً أن لحظة الهزيمة هي اللحظة التي نؤمن فيها أننا هُزمنا.

ولعلّي بدأت هذه المقدمة التأسيسية حتى أستطيع الإجابة عن سؤال يُطرح في أوساط الجميع متعجّبين: هل بعد كل تلك السنوات ما زلتم قادرين على الصمود والتدافع داخل السجون؟!

والجواب: نعم، نحن لم نكفر بالحرية ولا بالثورة، ولدينا قضايا عادلة تستحق أن نبذل فيها كل غالٍ ونفيس.

وسأعطيك مثالاً واضحاً علّه يختصر حديثاً طويلاً..

تخيّل أن يكون رفيقك في الزنزانة قد تم القبض على زوجته لأنها تضامنت معه، واختفت قسراً لفترة، ثم أُودعت السجن في ظروف لا يتحملها الأشدّاء من الرجال.

فما بالك بامرأة تقضي سنواتها بين سجينات جنائيات يمارسن عليها كل وسائل التضييق بأوامر من إدارة السجن، ولا تتوفر لها أبسط مقومات الحياة، ثم ترى بعينيها المنكسرتين أبناءها وقد صاروا بغير أب ولا أم!

لتجد جدة الأبناء حياتها موزعة بين زيارات السجون، فهل مشهد كهذا -وهو واحد من مئات غيره- يمكن الرضا به والسكوت عليه؟!

أقول لك: لو لم يكن من مطالبنا إلا حرية هذه الشريفة البريئة وعودتها إلى أولادها لكفى. بل وجب ذلك في حق كل حر طليقاً كان أو أسيراً.

ناهيك عن باقي مطالبنا العادلة من إنهاء التدوير والرعاية الطبية والمعاملة الكريمة. ولا نقول إنها غاية مطالبنا؛ بل مطلبنا الأسمى هو حريتنا التي يتمادى هذا النظام في سلبها منا.

محددات ثلاثة حتى لا تضيع الثوابت أو تنحرف الوجهة

① معركة الحرية، معركة طويلة النفس متعددة الجولات:

إن البعض يحاول أن يصوّر ما تم التصالح على تسميته (حراك أكتوبر) أنه اللحظة النهائية التي سيحرر فيها المعتقلون أنفسهم.

بل ذهب إلى تخيّل مشهد سينمائي يفتح فيه المعتقلون أبواب السجون ويخرجون أفواجاً.

ومن يصوّر ذلك يفسد من حيث لا يدري، فهذه معركة طويلة النفس متعددة الجولات، نراكم فيها النقاط لبلوغ الأهداف.

وهذا التصوّر الذي يروج له البعض هو آفة الخطاب الإعلامي منذ الثورة وحتى الآن، إذ بدلاً من أن يكون خطاباً ناضجاً يرفع الوعي بالواقع، ويبيّن أننا نواجه سلطة ونظاماً راكم من القوة والأدوات سنين طويلة. تحول إلى مادة للسخرية والتندر من شدة سذاجته! أما نحن فندرك جيدا أن معركتنا طويلة ممتدة، علينا أن نراكم فيها عناصر القوة وفاعلية الأدوات.

② دعم أسرى الحرية أمانة، واستغلالهم حماقة:

هناك فارق كبير بين "دعم" قضية المعتقلين و"استخدامها"، فلا يخفى على عاقل أن الأسرى هم الخاصرة الرخوة في النضال بين أي معارض حقيقي والسلطة.

وواجب على أي معارض دعم المعتقلين، لكن عار عليه، بل خيانة، أن يستخدم ورقة المعتقلين لتحقيق أهداف محدودة.

ولهذا من العجيب أن من فشل في إحداث تأثير ثوري حقيقي في الشارع، ولم يتمكن من تحريك كرة الثلج رغم كل ما يمر به النظام من أزمات، يريد أن يجعل السجون الباب الذي تنطلق منه رياح التغيير!

ففارق كبير بين أن تجعل قضية المعتقلين دافعاً للتغيير، وبين أن تجعلهم هم أداة التغيير!

③ صفقات عاجلة خاسرة، وأخرى آجلة رابحة:

بسبب طول الأمد يحاول البعض أن يتخذ من نتائج أي خطوة ذريعة للمقايضة على حريته أياً كان الثمن!

وسؤالي هنا لمن يسعى إلى الجلوس مع النظام على طاولة الذل: ألم تسمع رأس النظام وهو يكررها على أسماع الجميع أن معتقلي التيار الديني لن يخرجوا؟

بل زاد أن جعل حياته ثمناً لخروجهم، فقال: أُخرجهم كي يقتلوني؟!

فعلى مدار أكثر من عقد داخل السجون، من بيننا من قدم كل شيء، بل وتحوّل إلى أداة من أدوات التضييق علينا. فهل بعد كل ذلك نال حريته؟

الواقع يقول إن أغلبهم لم يحصلوا على شيء سوى خسران نفسه بعد أن خسر إخوانه.

إن تحرير الأمم والأوطان له ثمن باهظ، وقد دفعنا من أعمارنا ما يزيد عن العقد من الزمان، ونحن نؤمن بحقنا في الحرية، وأن نحيا في وطن بلا أغلال وبلا فساد.

وأن تتبوأ مصر مكانتها التاريخية كدولة مركز للأمة العربية والإسلامية.

ولقد علّمنا التاريخ أن القضايا العادلة تنتصر لا محالة، وما تجربة بيجوڤيتش ومانديلا عنا ببعيد.

يقيناً لا أحد يحب السجن، أو أن يستمر هذا الظلم، لكننا لا نقبل أبداً أن يكون الثمن هو أمتنا ووطننا وعقائدنا وأفكارنا.

ربما تثير كلماتي هذه بعض الجدل، ولكنها يجب أن تُقال.

فهي، وإن كانت لا تعبّر عن كل المعتقلين، فإنها بلا ريب تعبّر عن الشريحة الأكبر منهم، الأغلبية التي تتوق إلى حريتها بخروج عزيز يليق بالقضية التي دخل بسببها ولأجلها.